في حوارٍ دار خلال لقائي بأحد الأصدقاء في الوقت القريب، كنا نجلس في ركن
هادئ بعيداً عن الصخب، لكن الهدوء لم يكن يتسلل إلى ملامحه. كان يقلب هاتفه لدقائق، وعيناه تراقب بحذر شاشة الهاتف. سألته ما بك؟ هل هناك شيئاً يزعجك؟

ثم التفت إليّ قائلاً والأسى يكسو نبرته: لقد خسرت مبلغاً من المال في البورصة، ليتني ما استمعت لتلك النصيحة.

سألته: أي نصيحة تقصد؟

أجاب: أحد الزملاء أقنعني بأن الوظيفة لن تصنع ثراءً، وقال لي: لا تترك مالك راكداً، ضارب في الأسهم وجنِ الربح السريع، فالسوق اليوم يغلي والفرصة لا تعوض.. هكذا وبكل بساطة، دخلتُ مجال المضاربة.

هنا.. توقفتُ قليلاً عند كلمته "المضاربة".

ارتسمت في ذهني صورتان متناقضتان: صورة المضارب في تراثنا الفقهي، ذلك الإنسان الأمين الذي يسعى بمال غيره في الأرض ليخرج قوتاً ونماءً، وصورة المضارب في شاشات البورصة اليوم، والذي يطارد الأرقام كمن يطارد سراباً في صحراء رقمية.

قلت له بصوت هادئ يحاول امتصاص توتره: يا صديقي، لعلّ أزمتك بدأت منذ تلك اللحظة التي قبلت فيها تسمية "المراهنة" باسم "المضاربة"... إن ما نصحك به زميلك ليس هو "المضاربة" التي باركها الإسلام وجعلها عصب التجارة، بل هو نوع من "المقامرة السعرية" التي أُلبست ثوباً غير ثوبها.

نظر إليّ بتعجب قائلاً: وهل هناك فرق؟ أليست كلها بيعاً وشراءً وبحثاً عن الربح؟

أجبته: يخلط الكثير من الناس بين مفهوم المضاربة الشرعي والصحيح وبين مفهوم المضاربة الرائج والمعاصر فالفرق بينهما هو الفرق بين "الاستثمار في القيمة" والاستثمار في التقلب.. تأمل في النصيحة التي قُدمت لك "اجنِ الربح السريع" هذه الجملة بحد ذاتها هي نقيض الفلسفة الاقتصادية، فالربح في منظورنا ليس ضربة حظ، وإنما هو ثمرة مرتبطة بالجهد، والوقت، أو تحمل مخاطرة حقيقية في أصل منتج. أما ما يُروّج له اليوم كربح سريع عبر الشاشات، فهو في الغالب استحلابٌ للتقلبات وليس "تنميةً للثروات".

هزّ رأسه متسائلاً: لكني في النهاية أشتري أسهماً في شركات موجودة، أليس هذا عملاً إنتاجياً؟

أجبته: يخلط الكثير من الناس بين مفهوم المضاربة الشرعي والصحيح وبين مفهوم المضاربة الرائج والمعاصر فالفرق بينهما هو الفرق بين "الاستثمار في القيمة" والاستثمار في التقلب.. تأمل في النصيحة التي قُدمت لك "اجنِ الربح السريع" هذه الجملة بحد ذاتها هي نقيض الفلسفة الاقتصادية، فالربح في منظورنا ليس ضربة حظ، وإنما هو ثمرة مرتبطة بالجهد والوقت، أو تحمل مخاطرة حقيقية في أصل منتج. أما ما يُروّج له اليوم كربح سريع عبر الشاشات، فهو في الغالب استغلال للتقلبات وليس تنميةً للثروات.

هزّ رأسه متسائلاً: لكني في النهاية أشتري أسهماً في شركات موجودة، أليس هذا عملاً إنتاجياً؟

أجبته: هنا تكمن الخديعة الكبرى. في المضاربة الإسلامية أنت تدخل في "شراكة تعاونية" حيث يربح صاحب المال ويربح العامل، وينتفع المجتمع بالسلعة أو الخدمة. أما ما تفعله الآن في المضاربة السعرية اللحظية، فهو أقرب لما يسمى في التحليل الاقتصادي باللعبة الصفرية...أنت لا تربح لأن الشركة زرعت محصولاً أو صنعت آلة، بل تربح لأنك بعت السهم لشخص آخر بسعر أعلى قبل أن يكتشف هو أن السعر سيهبط...ببساطة: ربحك هو خسارة محققة لشخص آخر يقف خلف شاشة أخرى، دون أن تُضاف ذرة واحدة إلى الإنتاج الحقيقي.

ساد صمت قصير، بدا فيه الصديق كمن يعيد ترتيب أوراقه، فتابعت مسترسلاً:

لذا يا صديقي، يجب أن نسمي الأشياء بمسمياتها الصحيحة. ما قمت به ليس مضاربة إنتاجية، بل هو مخاطرة لحظية على فروق الأسعار. أنت لم تكن شريكاً في شركة، بل كنت مراهناً على حركة مؤشر، المضاربة الحقيقية تبني المصانع وتُشغّل الأيدي العاملة، أما هذه الممارسة فتبني قلاعاً من الرمال تذروها رياح التقلبات.

أنهيتُ حديثي قائلاً: لقد كنت تطارد وهم الربح السريع باسم المضاربة. فالمال خُلق ليسري ويدور في عروق الاقتصاد الحقيقي لا ليُسجن في مضاربات لا تُغني ولا تُسمن من جوع.